6

حِكْمَةُ التعاطف

عَمِلْتُ، أثناء دراستي الجامعية، في مطاعم عديدة، من بينها بعض المطاعم الفخمة؛ وأكتفي بالقول إن قناعةً تشكّلت لديّ أنّ من الحسن أن تكون لطيفاً مع فريق الخدم. ليس مطلوباً منك أن تغنيهم، أو تخشاهم أو تجاورهم.... للاحترام نتائجه الطيبة.

من تعليقات قارئ على مقالة كتبتُها

ستظلّ المصالح الأميركية في الشرق الأوسط على أهميتها في سياسة الولايات المتحدة خلال العقد التالي وأبعد منه. فالتزام أميركا بإسرائيل يربطها بالشرق الأوسط على نحوٍ لا فكاك منه، وأهمية النفط المتواصلة بالنسبة للاقتصاد العالمي، متضافرةً مع توفّر المنطقة على أكبر مخزون عالمي، تبقيان على أهمية الشرق الأوسط الاستراتيجية بالنسبة لأميركا. أمّا القلق حيال

obeikandi.com

تهديد الإرهاب واحتمال استمرار وجود القوات العسكرية الأميركية في المنطقة فيضيفان درجةً أخرى من المصلحة والأهمية. والسؤال بالنسبة لأميركا هو كيف تتدبّر هذه المصالح المهمة في السنوات القادمة. فالرهانات مرتفعة وخطيرة.

وسوف تظلّ الولايات المتحدة مأخوذةً بمقاربةٍ تستند في المقام الأول على المزايا الواضحة التي تتمتّع بها بوصفها القوة العظمى الوحيدة الباقية لأنَّ شعباً متألّماً ألماً عميقاً يظلّ يتطلّع إلى ردود سريعة وبسيطة على ذلك الألم. ولذلك تركّز هذه المقاربة كثيراً على استخدام القدرة العسكرية الأميركية إزاء التحديات التي تواجه أميركا وعلى التعامل مع الحكومات وحدها، عبر الترهيب والترغيب، دون اهتمام بالرأي العام العالمي، كما تلاحق المصالح الأميركية في المنطقة دون كبير اكتراثٍ بمصالح الآخرين الحيوية وتنظر إلى الحرب على الإرهاب بوصفها قضيةً يملك الأميركيون حقّ تعريفها الحصريّ على الأقل.

وتبقى أميركا قويةً وقادرة. فمن المؤكّد أنَّ الغلبة ستكون لها إذا ما واجهت سواها من الدول عسكرياً، حتى لو خاضت تلك المواجهة وحدها. وهي إذْ تمارس مثل هذه القوة، لا بدّ أنْ تعيد تشكيل أولويات الدول الأخرى بل وتعيد صياغة النظام السياسي الإقليمي، كما هو الحال في الشرق الأوسط.

غير أنَّ المعضلة التي ينطوي عليها استخدام القوة هي أنَّ هزيمة الآخرين لا تعني النصر على الدوام. وهنالك أسباب كثيرة

للتفكير بأنَّ تطبيق مثل هذه المقاربة على الشرق الأوسط لن يُلحق الضرر بأعداء أميركا وحسب بل بأصدقائها أيضاً ويمكن في النهاية أن يقوّض المصالح ذاتها التي نحاول الدفاع عنها. وسوف أُعنى هنا بأربعةٍ من هذه الأسباب:

1. الاستخفاف بما للقوة من حدود.
2. دفع الآخرين إلى تحدّي أميركا.
3. التوصيف الخاطئ لطبيعة التحدّي المطروح، وتالياً لطبيعة الردّ الضروري.
4. إغفال القيم التي هي موضع رهان، والتي نمثّلها ونرمز إليها كأمّة.

وسوف يشكّل الربط بين هذه المسائل الأربع والإفصاح عنها غاية هذا الفصل الختامي.

1 . حدود القوة

إنّه لمما يبعث في النفس الرضا والسرور أن تكون أمتنا هي الأمة الأقوى على وجه الأرض، وأن تردع الأعداء المحتملين وتعاقب أولئك الذين يهاجموننا على أرضنا. فالقدرة على معاقبة من كانوا وراء جرائم 9/11 لم تكن ذات أثر تطهيريّ وحسب بل كانت ضرورية أيضاً للحيلولة دون وقوع هجمات أخرى. وكلٌّ من التهديد

obeikandl.com

وممارسة القوة مهمّ في تحقيق الأهداف القومية وضمان الاستقرار العالمي، وكلاهما لا يمكن تجنّبهما في بعض الأحيان.

بيد أنّه ينبغي أن يكون واضحاً، في الوقت ذاته، أنّه على الرغم من كون القوة ميزة مهمّة بالنسبة للدبلوماسية الحصيفة، إلاّ أنّها ليست بديلاً لها. إنّ لدينا من القوة ما ليس يوجد لدى أي أحد آخر، لكن هذه القوة ليست بلا حدود. فالآخرون أيضاً يمتلكون القوة ويمكن أن يمتلكوا المزيد منها. ولدى استخدام القوة على حساباتنا ألاّ تقتصر على المنافع المحتملة قصيرة الأمد، بل ينبغي أن تتعدّاها إلى العواقب طويلة الأمد التي يمكن أن تترتّب على ممارستنا إياها مرّة أخرى. فخلق المزيد من الأعداء قياساً بالأصدقاء لا يدلّ على الكفاءة ولا الحصافة.

لنأخذ حرب العراق في العام 2003، التي شُنّت بأدنى حدود الدعم من قِبل الآخرين وإزاء معارضة كثيرٍ من البلدان في المنطقة والعالم بأسره. لقد أفلحت الولايات المتحدة في الإطاحة بالنظام العراقي، على الرغم من أنَّ فعلها هذا كاد أن يكون فعلاً أحادياً. غير أنَّ ضمان الولايات المتحدة النتيجة المطلوبة اقتضى منها أن تسخّر موارد اقتصادية وعسكرية وسياسية كبيرة لفترة مديدة. ولا شكّ أنَّ اقتضاء المهمّة مثل هذه الموارد في الوقت الذي تواصل فيه أميركا حربها على الإرهاب، في آسيا الوسطى خاصةً، يقلّل من قدرتها على القيام بحملات أخرى في غير مكان ويمكن أن يقوّض التحالف الذي تحتاجه للنجاح في حملتها ضد الإرهاب. وإذا

ما كان إظهار قوة أميركا الساحقة واستعداد واشنطن لاستخدامها في ردع الأعداء المحتملين يشكّلان جانباً من مقاصد مثل هذه الاستراتيجية، فإنَّ النتيجة يمكن أن تكون التوسّع المفرط، الذي كان بمثابة جنوح لدى كثيرٍ من الإمبراطوريات، حيث تتقوّض قدرة أميركا على ردع التهديدات الجديدة التي يمكن أن تتهدد مصالحها. تلك هي معضلة القوة: حيث تكون أشدّ فعالية كلما قلّ استخدامها؛ وكلما زاد استخدامها قلّت مواردها الباقية وقلّت مصداقية التهديد باستخدامها.

ومن المهمّ أيضاً أن نتأمّل في تأثير الحرب مع العراق على الكثيرين في أرجاء العالم ممن زاد سخطهم باطّراد على النزعة الأحادية الجانب لدى أميركا: فقد غدوا أشدّ ميلاً إلى إقامة التحالفات للحدّ من تأثير القوة الأميركية. كما كثّفت الدول الطامحة إلى امتلاك الأسلحة النووية، مثل كوريا الشمالية وإيران، من جهودها على هذا الصعيد في محاولة لردع أحادية الجانب الأميركية. وإذا ما حلّت قوى إقليمية أخرى محلّ هذه الأحادية الأميركية، فسوف تكون العواقب على النظام العالمي أدهى وأمّر.

2. دَفْعُ الآخرين إلى تحدّي أميركا

لقد أدرك الاستراتيجيون العسكريون منذ وقت طويل أنَّ الدافع مسألة أساسية في النتيجة التي يمكن أن يسفر عنها أيّ

صراع. فمدى "الشرعية" التي يُرَى أنَّ قضيةً ما تتمتّع بها يؤثّر على الدرجة التي يبلغها دافع الأطراف المعنية بهذه القضية. وإذا ما كان الدور الأساسي الذي تلعبه القوة العسكرية في تحديد النتيجة دوراً واضحاً لا جدال فيه، إلاّ أنَّ أهمية الدافع توازن أهمية القوة العسكرية على المدى البعيد. فمع انخفاض إرادة القتال لدى الطرف الأقوى أو انخفاض قدرته على تحمّل حتى الإصابات والخسائر المحدودة، تزداد إرادة خصمه الضعيف وترتفع لديه عتبة الألم. ولعلّ من المفيد على هذا الصعيد أن نقارن بين تجربة إسرائيل في لبنان من جهة أولى ومواجهاتها مع الفلسطينيين من جهة أخرى.

لقد انسحبت إسرائيل من لبنان في العام 1999 بعد سنوات من الاحتلال. ومع أنَّ الدرس الذي استخلصه بعضهم من ذلك هو أنَّ حرب العصابات هي الوسيلة المثلى للتعامل مع إسرائيل، متصوّرين أنَّ حزب الله قد ألحق بها هزيمة عسكرية، إلا أنَّ النتيجة كانت مرتبطة إلى حدٍّ بعيد بالدافع لدى كل طرف. فإسرائيل تمتلك، من الناحية العسكرية، قوة كاسحةً بالمقارنة مع الدولة اللبنانية، وجارتها المسيطرة سوريا، وحزب الله الذي تُعَدّ قواته بالمئات ولا يملك سوى عتاد محدود. ولم يقتصر الأمر على تفوق إسرائيل الحاسم عسكرياً بل تعدّاه إلى إنزالها من الألم بحزب الله ولبنان (والقوات السورية في بعض الأحيان) ما يفوق بكثير ما أنزله بها هؤلاء. فأفعال إسرائيل جعلت لبنان يواجه مشكلة عشرات الآلاف

من اللاجئين؛ ومئات الإصابات؛ والتخريب الجدّي في اقتصاده بأساليب مثل تدمير محطات الطاقة التي شلّت عاصمته بيروت. وبالمقابل، فإنَّ وجود إسرائيل في جنوب لبنان لم يؤثّر على الاقتصاد الإسرائيلي إلاّ بأدنى الحدود، وعدد الإصابات التي تكبّدتها كان بسيطاً بمقاييس الحرب (بضع عشرات في كلّ عام). وكان بمقدور إسرائيل أن تواصل وجودها هناك، ولم يُرِد كثيرون في المؤسسة العسكرية الإسرائيلية أن يتم الانسحاب من لبنان دون عقد اتفاقية للسلام.

غير أنَّ إسرائيل انسحبت في النهاية من غير مثل هذه الاتفاقية. وفسَّر حزب الله وسواه في المنطقة هذه الحصيلة على أنها نصر عسكري يمكن تكراره في المناطق الفلسطينية. وهذا تفسير خاطئ ومؤسف. فانسحاب إسرائيل ونجاح حزب الله لا يمكن فهمهما بمعادلة القوة وحدها، أو بالمقاييس العادية لِكَسْبِ حربٍ أو خسارتها. والأمر الأساسي كان الدافع لدى كلّ طرف. والأهم من ذلك، أنَّ درجة هذا الدافع ومداه كانا مرتبطين بعاملين اثنين ليست لهما علاقة مباشرة بالقوة: مدى الأهمية الحيوية التي يسبغها كلّ طرف على هذا الصراع بالنسبة لوجوده ودرجة الشرعية التي يتصوّر كلّ طرف أنّ قضيته تحوزها في أعين العالم.

لقد رأى معظم اللبنانيين، بمن فيهم أولئك الذين يعارضون حزب الله، إلى احتلال إسرائيل أرض لبنانية والعمل انطلاقاً منها على أنه تهديد لسيادتهم يتخطّى كلّ انقساماتهم. أمّا عدم وجود

تهديد مباشر لإسرائيل من لبنان وتركيز عمليات حزب الله الفدائية على القوات الإسرائيلية الموجودة على الأرض اللبنانية بصورة أساسية فقد طرحا في أذهان الرأي العام الإسرائيلي أسئلة عن الحاجة إلى البقاء في لبنان وعن المبّرر الذي يقف وراء أيّة إصابات إسرائيلية. ولو أنَّ حزب الله صاغ أهدافه في إطار استئصال إسرائيل بدلاً من تحرير لبنان، وأرسل انتحارييه لقتل المدنيين الإسرائيليين، لكان الدافع لدى إسرائيل قد تغيّر إلى حدٍّ بعيد. فالدافع يؤثّر، كحدٍّ أدنى، على عتبة الألم لدى كلّ طرف وإرادته في استخدام القوة. فمن أجل تحقيق لبنان استقلاله، يمكنه أن يتحمّل قدراً هائلاً من الألم؛ وفي غياب أيّة مصالح حيوية واضحة، فإنَّ إسرائيل لا يمكنها أن تتحمّل ولو قدراً قليلاً منه. كما تأثّرت مسألة الدافع هذه بالتصورات الخارجية عن شرعية القضية التي يحمل لواءها كلّ طرف: فالإحساس بأنَّ دافع لبنان إلى السعي وراء استقلاله كان متّسقاً مع مبادئ السيادة التي يقرّها معظم العالم ولّد من التعاطف الدولي مع لبنان ما فاق التعاطف مع إسرائيل، الأمر الذي عزّز تصميم اللبنانيين وشحذ عزائمهم.

أمّا المواجهة الفلسطينية الإسرائيلية في الضفة الغربية وغزّة فكانت من طبيعة مختلفة. فهنا أيضاً تمتّعت إسرائيل بتفوّق كاسح من حيث قوتها. وكان لدى الفلسطينيين دافع يفوق دافع اللبنانيين نظراً لافتقارهم إلى أيّة دولة ووجودهم تحت الاحتلال.

ولذلك كانت عتبة الألم لديهم مرتفعة جداً لأنَّ المسألة بالنسبة لهم هي مسألة وجود في جوهرها. أمّا بالنسبة لإسرائيل، فثمّة قضايا ثلاث جعلت مسألة الدافع لديها مختلفة أشدّ الاختلاف عن حالها في لبنان: أول هذه القضايا، أنَّ قرب الضفة الغربية من قلب إسرائيل يجعل النتيجة أكثر أهمية بكثير. وثانيتها، أنَّ قسماً كبيراً من الإسرائيليين لطالما أراد إعلان الضفة الغربية جزءاً من إسرائيل. وثالثها، أنّ العمليات الانتحارية ضدّ المدنيين داخل إسرائيل جعلت القضية أكثر حيوية لما يمثّله ذلك من تهديد مباشر. وبالنتيجة، وعلى الرغم من إنزال الفلسطينيين إصابات بالإسرائيليين تفوق ما أنزله بهم حزب الله، فإنَّ الدافع الإسرائيلي زاد ولم ينقص. وهكذا عَمِلَ توازن الدوافع في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي على تغذية الصراع وتأجيجه أكثر مما أجّجه توزّع القوى العسكرية الفعلي، كما عمل على الحدّ من إمكانية كسب هذا الصراع عبر الهجمات الفلسطينية أو عبر التفوق العسكري الإسرائيلي. فمن الممكن لإسرائيل أن تنزل بالفلسطينيين ألماً يفوق بكثير ذلك الألم الذي تعانيه، لكن ذلك لا يعني أن تربح أو تحقق السلام.

وبالنسبة لأميركا القوية، فإنَّ من المهم أن نُبقي في أذهاننا لدى تأمل الخيارات العسكرية على مستوى عالمي، وعلى مستوى الشرق الأوسط أيضاً، أنَّ الدافع هو عامل يؤثّر على الفائدة المتوخّاة من القوة وعلى إرادة استخدامها. فأمر الشرق الأوسط يقلق

أولئك الذين يعيشون فيه أكثر ما يقلقنا. وما من استراتيجية للدفاع عن المصالح الأميركية في مناطق مثل العراق وبقية الخليج العربي يمكن أن تنجح على المدى البعيد ما لم تضمن الولايات المتحدة ألاّ تزيد في سياق ذلك من أعدائها الذين يمتلكون دوافع عميقة لمثل هذا العداء.

3. طبيعة التحدّي والردّ الضروري

فهم التحدّي:

بمقدور القوة الأميركية أن تتصدى تماماً للتهديدات التي تصدر عن أيّة دولة أو مجموعة من الدول وتواجه مصالح الولايات المتحدة الحيوية. وكما قلتُ في الفصل الأول، فإنَّ الإرهاب هو ذلك التهديد الذي يصدر بصورة أساسية عن فاعلين من خارج الدول. ولم يكن مدهشاً أنَّ أيّاً من الإرهابيين الذين هاجموا أميركا لم يأتِ من البلدان التي تضعها وزارة خارجيتنا ضمن "الدول الإرهابية"، وأنّه لم يكن هنالك أيّ دليل على صلتهم بمثل هذه البلدان. وتكفي قدراتنا العسكرية لردع الحكومات الأشدّ طموحاً في أرجاء الدنيا، وما من دولة، بما فيها إيران وكوريا الشمالية، إلاّ وتتحسّس ردع الأطراف التي تفوقها قوة. والجبروت العسكري الأميركي هو السبب الرئيس لعدم استخدام صدام حسين أسلحته الكيماوية في العام 1991، حين أظهرت تقديراتنا

العسكرية الخاصة أنَّ مثل هذا الفعل قد يؤدي إلى إصابة آلاف الأميركيين. لقد فعل الردع فعله: حين حذّر وزير خارجيتنا الأسبق جيمس بيكر من أنَّ استخدام مثل هذه الأسلحة سيعني نهاية حكومة صدّام. غير أنّه من الأصعب بكثير أن تردع أولئك الأفراد وتلك الجماعات الصغيرة المتحمّسة التي تزدهر حيث تضعف السلطة المركزية ويكون الردع أقلّ فاعلية. وفي حقبةٍ تضعف فيها سيطرة الدول على تدفّق المعلومات والتكنولوجيا، فإنَّ من الأسهل بكثير على الجماعات المتحمّسة والأفراد المستعدّين لتحمّل المخاطر أن يقوموا بهجمات إرهابية، ويطرحوا تهديدات تتزايد خطورتها وفتكها باطّراد.

ولاشكّ أنَّ بمقدور الدول أن تتعاون للحدّ من هذا التهديد، الذي هو في النهاية تهديد لها جميعاً؛ ذلك أنَّ منطق السيادة ذاته في النظام الدولي مبنيّ على احتكار الحكومات لاستخدام القوة. وبما أنَّ المشكلة عالمية، فإنَّ من غير الممكن مواجهتها بصورة أحادية الجانب. فلا يمكن لاستراتيجية المواجهة هذه أن تنجح إلاّ عبر تعاون واسع مع الدول الأخرى، على صعيد الاستخبارات، والتمويل، والمواجهة المباشرة مع الجماعات المهدِّدة. أما السياسة التي تنزع الاستقرار الإقليمي - من خلال نزع استقرار العراق وإثارة الرأي العام في المنطقة - وتُضْعِف الدول من جهة أولى وتقلّل من استعدادها للتعاون من جهة ثانية، فلا بدّ أن تخفق في الحدّ من التهديد الإرهابي.

لننظر، مثلاً، إلى الخوف الجدّي من أن يمتلك الإرهابيون أسلحة الدمار الشامل. ففي العقد الماضي، لم يكن مصدر القلق العالمي المشروع إمكانية أن توفّر الدول ذات السيادة مثل هذه الأسلحة للإرهابيين بل أن يفضي تفكك الاتحاد السوفيتي إلى فقدان السيطرة الكاملة على هذه الأسلحة في الدول السوفيتية السابقة. وحتى ذلك الاكتشاف الموثّق الذي جرى في العام 2002 من أنَّ أعضاء من القاعدة أو من جماعات أخرى كانوا يختبرون أسلحة كيماوية في شمال العراق يبقى اكتشافاً ذا دلالة: فمثل هذا الاختبار لم يَجْرِ في مناطق تسيطر عليها الحكومة العراقية بل في مناطق كردية شبه مستقلّة تحميها جزئياً القوى الجوية الأميركية. كما أشارت التقارير بعد العام 2003 إلى انتقال بعض الجماعات الإرهابية إلى العراق. فحيث تقلّ السيادة، تكون ثمّة فرصة للإرهاب.

وللإرهاب جانب يتعلّق ب "الطَّلَب" فضلاً عن جانبه المتعلّق ب "العرض"، كما أشرت في الفصل الأول. ويمكن لاستراتيجيةٍ عسكريةٍ أن تجتثّ قوّة بعض المعارضين، تلك المنظمات التي تستغلّ السخط الشعبي لتجنيد الأعضاء والتخطيط للهجمات. لكن جانب الطلب يبقى: ذلك الغضب الشعبي، واليأس، والإذلال الذي يدفع البشر إلى الانضمام إلى مثل هذه الجماعات. وما دام هذا الجانب باقياً أو كان يزداد، وهو الأسوأ، فإنَّ الفراغ الذي يخلقه تدمير أحد المعارضين سرعان ما يسدّه طامحون آخرون. ولا

يميل جميع البشر اليائسين أو الذين يشعرون بإذلال عميق، ولا معظمهم، إلى الانخراط في جماعاتٍ متورطة في الإرهاب. غير أنَّ المرء حين ينظر إلى المجتمع ككلّ ويجد أنَّ الغالبية فيه حانقة وساخطة، فذلك في العادة مؤشّر على أنَّ البشر في هوامشَ هذا المجتمع قد بلغوا من الراديكالية ما يمكن أن يدفعهم في بعض الأحيان إلى القيام بأفعالٍ وحشية.

والحال، أنَّ المواقف العامة في العالم العربي وقسم كبير من العالم الإسلامي لم تقتصر على الاستياء الشديد من السياسة الخارجية وحسب بل تعدّته على نحوٍ متزايد إلى إحساس باليأس والإذلال العميقين اللذين يربط البشر بينهما وبين تلك السياسة. ومن المرجّح أنَّ تفاقم السيطرة الأميركية المتنامية في الخليج هذه المشاعر. وعلى الرغم من النوايا الحسنة بعد 9/11، فقد عملت النقاشات التي جرت في أميركا وفي العالمين العربي والإسلامي على تصوير المواجهة على أنها تضع أميركا في طرف والعرب والمسلمين في الطرف الآخر. وهذه ظاهرة خطيرة لأنّها تضع كلا الطرفين على منزلقٍ يفضي بهما إلى مواجهة طويلة الأمد لا تفيد أحداً.

وعلى الرغم من وجود قضايا كثيرة تفسّر الخلاف بين الولايات المتحدة وكثيرين في العالم العربي والإسلامي، فإنَّ لا مفرّ من الاعتراف بحقيقة إنَّ الصراع العربي الإسرائيلي هو المصدر الأكبر للغضب والإذلال. فمن غير هذه القضية، كانت ستظلّ

obeikandi.com

هنالك خلافات كثيرة باقية، كتلك التي بين الولايات المتحدة وأجزاء أخرى من العالم. غير أنَّ عمق الغضب الذي يدفع كثيراً من البشر ويخلق لمنظمي الإرهاب متطوعين جاهزين كان سيقلّ. كما كان العمل مع الفاعلين في المنطقة سيغدو أسهل في مواجهة المشاكل المشتركة.

ولا مجال للزعم بأنَّ بنية العلاقة التي تربط أميركا بالشرق الأوسط لا تتأثر جوهرياً بالصراع العربي الإسرائيلي؛ فحروب مثل الحرب الجديدة مع العراق لن تعمل إلاّ على دفع المنطقة ذلك الدفع المدوِّخ إلى فترة من الهدوء المؤقَّت قبل أن يعاود الواقع الظهور: وهو أنَّ أميركا لاعب أساسي في الصراع العربي الإسرائيلي. فالالتزام الأميركي بإسرائيل، الذي غالباً ما يضع الولايات المتحدة في الطرف المقابل لجميع الآخرين في المنظمات الدولية، يعني أنَّ على الولايات المتحدة أن تردّ حين تتعرّض إسرائيل للتهديد. كما يعني، من جهة أخرى، أن تتلقّى أميركا بصورة أكيدة ذلك القدر الكبير من اللوم حين تكون الغلبة لإسرائيل ويكون العرب في الطرف الخاسر، وذلك بسبب تقديمها لإسرائيل صنوف الدعم العسكري، والاقتصادي، والسياسي. هكذا يغدو أيّ غضب على إسرائيل غضباً متزايداً على الولايات المتحدة أيضاً. ولا يمكن، على المدى البعيد، لأيّة إعادة ترتيب سياسي للمنطقة أن تحلّ تلك المعضلة ما لم تحلّ الصراع العربي الإسرائيلي، خاصةً القضية الفلسطينية. فالسلام بين الإسرائيليين والعرب هو وحده

الذي يمكن أن يحدّ كثيراً من تحدّي المصالح الأميركية في المنطقة. فما من قضية أخرى تحتلّ مثل هذا الموقع المركزي سواء بالنسبة لمصالح أميركا في الشرق الأوسط أو بالنسبة للحدّ من جانب الطلب في إرهاب المنطقة.

الحاجة إلى بناء جسور التفاهم المتبادل:

تدمير الجسور أيسر من بنائها بكثير، إلاّ أنّ كثيراً من جسور التفاهم هي التي ينبغي بناؤها بين الولايات المتحدة وشعوب البلدان العربية والإسلامية. وتشير استطلاعات الرأي العام، على نحوٍ ثابت، إلى أنَّ المصدر الأساسي لإحباط العرب والمسلمين وغضبهم إزاء الولايات المتحدة هو افتقارها الواضح إلى التعاطف مع آلامهم ومحنهم. وحتى لو صرفنا النظر عن الصواب والخطأ في السياسة تجاه قضايا مثل العراق والصراع العربي الإسرائيلي، فإنَّ التصور السائد هو أنَّ أميركا تستخفّ بأرواح العرب والمسلمين ولا توليها أهمية أو قيمة. والحال، أنَّ الدبلوماسية العامة الفاعلة تشكّل واحداً من المكوّنات الأساسية للسياسة الخارجية الأميركية في المنطقة.

لكنّ الدبلوماسية العامة لا تعني الدعاية، وثمّة حدود لما يمكن تحقيقه عبر هذه الوسيلة. صحيحٌ أنَّ الولايات المتحدة بحاجة لأن تشرح سياساتها وتنشر المعلومات حول الثقافة والقيم والأهداف الأميركية، إلاّ أنَّ الدبلوماسية العامة ينبغي أن تكون حاضرة عند

obeikandi.com

الشروع في أيّة سياسة وينبغي أن تشتمل على الحوار والتغذية الراجعة: فحين يتمثّل الهدف في إيصال رسائل إلى الآخرين وتوليد استجابات محدّدة لديهم، لا يمكن لذلك أن يُفلِحَ من غير تفهّم أهداف أولئك الآخرين، وطموحاتهم، وأولوياتهم، وحساسياتهم.

وفي بعض الأحيان يمكن لكلمة واحدة يتفوّه بها الرئيس أو وزير الخارجية أن تفوق في قيمتها ملايين الدولارات التي تُنْفَق في حملة من حملات الدبلوماسية العامة. وقد شهدنا في التاريخ القريب مثالين لافتين على هذا الأمر. أولهما هو استخدام الرئيس بوش عن غير قصد لمفردة الصليبية في وصفه الحملة العالمية على الإرهاب، حيث تثير هذه الكلمة في العالم الإسلامي مخاوفَ حملةٍ صليبيةٍ مسيحيةٍ ضدَّ الإسلام. و الأمر أشبه بأن يعلن الرئيس المصري أو الباكستاني سياسة عالمية جديدة تستهدف أميركا وتقوم على أساس الجهاد، هذا المصطلح الذي يُفهَم منه في الولايات المتحدة حرباً إسلامية مقدّسة، علماً بأنَّ العرب والمسلمين كثيراً ما يستخدمونه بمعنى الصراع والكفاح. ومع أنَّ الرئيس صوّب لاحقاً ما يعنيه وراح يستخدم مصطلحات مختلفة، إلا أنَّ إعلانه الباكر هذا لا يزال يُسْتَخْدَم ضدّه في المنطقة على أنّه يعكس النيّة الحقيقية للسياسة الأميركية.

أما المثال الثاني فهو مثال على كلمات لم تُقَلْ وكان من اللازم أن تُقال. وقد وقع ذلك خلال تلك الفترة العصيبة من العمليات الإسرائيلية المدمّرة في المدن الفلسطينية، والتي أمر بها

أرييل شارون بعد عمليات انتحارية رهيبة قتلت كثيراً من المدنيين الإسرائيليين. فكما ركّز الإسرائيليون بصورة مفهومة ومبرّرة على ألمهم ومأساتهم، كذلك استثير العرب لمقتل كثير من المدنيين الفلسطينيين، وتخريب مدنهم، وعجزهم في مواجهة الجيش الإسرائيلي القوي، ممّا بُثَّ حيّاً على شاشات تلفزيوناتهم. ولقد عزّزت مثل هذه الصور من ربطهم شارون بالحرب، أو العنف، ومذبحة الفلسطينيين في لبنان في العام 1982. وانتظروا أن يسمعوا ما سيقوله البيت الأبيض، يحدوهم الأمل بأن تكون ثمّة خطة لإنهاء العنف أو بضع كلمات متعاطفةٍ على الأقلّ. غير أنَّ الرئيس بوش وصف شارون بأنّه "رجل سلام". وتصدَّرت هاتان الكلمتان الصحف العربية إلى جانب صور الموت والدمار وقوّضتا كلّ شيء آخر قاله الرئيس.

وثمّة سبب مهمّ آخر لمدّ الجسور وإقامة الحوار مع شعوب المنطقة في الحملة على الإرهاب بوجه خاص. فالإرهاب، كما سبق أن قلت في هذا الكتاب، هو وسيلة لا أخلاقية تستخدمها جماعات مختلفة لغايات مختلفة. ولكي نقلّل من وقوعه، ينبغي أن تَنْزَعَ عنه الشرعية تلك المجتمعات التي يحصل فيها. ولكي تنجح الحرب على الإرهاب، لا ينبغي أن يُنْظَر إليها على أنّها حرب أميركية ضدّ جماعات بعينها بل بوصفها حملة ترمي إلى نزع الشرعية عن الطرائق الإرهابية، وإلى جعل الأمور أصعب بالنسبة لتلك الجماعات في تجنيد الأعضاء، وتحقيق المكاسب، وتحقيق

القبول. ومثل هذه السياسة تقتضي إقامة التحالفات وإبراز الاتّساق الأخلاقي، ذلك أنّ الشرعية واللاشرعية تتعلّقان في جوهرهما بالتوافق والإجماع ولا يمكن أن تقوما لوحدهما. وعلى السياسة الفاعلة أن تَحولَ دون التصوّر الذي يرى أنّ الصراع هو "بيننا" و "بينهم" بالمعنى الذي يضع الأميركيين في مواجهة المسلمين والعرب، ويؤسّس لصدام الحضارات. وعلى تلك السياسة أن تتبيّن ما يجري من صراعٍ على مصير المجتمع في داخل العالمين العربي والإسلامي، حيث تشاطرنا أقسامٌ واسعة ونافذةٌ في هذه المجتمعات كثيراً من قيمنا، وإِنْ كانت لا تقاسمنا كثيراً من سياساتنا. وتمكين هذه القوى ومساعدتها على خوض كفاحها الخاص من أجل التغيير هو أمر أساسي في كسب المعركة على القلوب والعقول.

ومثل هذا التمكين لا يمكن أن يجري من خلال الدبلوماسية العامة وحدها، تلك الدبلوماسية التي تتعلّق بإبراز المعلومات، والصور، والقيم بغية إطلاع الجمهور الأجنبي عليها. فقدرة المعتدلين على رفع صوتهم بالكلام في مجتمعاتهم ـ بما فيها المجتمعات الحرة ـ تكون محدودة في أوقات الأزمات القومية. وحين يخيّم إحساس بألم قوميّ، غالباً ما يُنْظَر إلى أصوات المعارضة على أنّها غير وطنية، عديمة الذمّة، تخدم مصالح الأعداء. وفي مثل هذه الأوقات يُكْتَم الحوار، ويلعب المتشدّدون على مشاعر الجمهور، ويتّخذ المعتدلون مواقع الدفاع. وهذه ظاهرة مؤسفة تبرز في كلّ مكان، بما في ذلك بلادنا الحرّة، لكنها تسود أكثر حين يكون

المجتمع أقلّ حرّية. فمع أنَّ الكثيرين في الشرق الأوسط يرفضون الإرهاب، إلاّ أنَّ قلة وحسب هي التي رفعت صوتها مع تنامي التوتر مع الولايات المتحدة بسبب موقفها من الصراع العربي الإسرائيلي. وما يدفع هذا الصمت هو الرقابة الذاتية في بعض الأحيان، والتهيّب في أحيان أخرى، والغضب وحده في أحيان ثالثة: "إنْ لم يكن بمقدور الولايات المتحدة أن تحسّ بآلامنا، فلن نحسّ بآلامها نحن أيضاً". وهكذا تشكّل السياسة الأميركية عاملاً مهمّاً في التأثير على منظورات النقاشات الجارية في الشرق الأوسط، وصيغتها، ونتيجتها.

والدور الذي تلعبه الحكومات والسياسات الرسمية في أوقات الأزمات القومية هو دور أساسيّ في تحديد نبرة النقاشات القومية والعمل على تعبئة المعتدلين في مواجهة أولئك الذين يؤيدون الخيارات المتطرفة وقد أعماهم الخوف أو الألم. فلدى الحكومات في الشرق الأوسط دور أساسي تلعبه في النقاش الداخلي، كما أنَّ لحكومتنا تأثيرها الكبير في رفع نبرة الصداقة والتعاطف التي تمكّن القوى المعتدلة وتمدّ لها يد العون. والسياسة التي تخلق بدائل سلمية حقيقية هي أفضل طريقة لتمكين المعتدلين، وحشدهم، وإفساح المجال أمامهم لتقديم منظور فيه أمل وهم يناقشون علانية تلك الأصوات المقاتلة. ولا حاجة بمثل هذه البدائل السياسية أن تنطلق من واشنطن على الدوام، ذلك أنَّ على الولايات المتحدة أن تجد سُبُلاً للعمل مع آخرين في المنطقة وفي سواها. وعلى هذا

الأساس، فإنَّ من الممكن استخدام الدعم الأميركي لجهود الاتحاد الأوروبي، أو لأفكارٍ مثل مقترحات السلام السعودية، في تعزيز المصالح الأميركية كما في تعزيز منظورات السلام في الشرق الأوسط.

4. القيم مَوْضِعُ الرهان

قلتُ إنَّ المقاربة المتعاطفة، تلك المقاربة التي تبني التحالفات وتراعي مصالح الدول الأخرى الحيوية، ولا تستخفّ بأماني الشعوب في أرجاء الأرض، هي أيضاً مقاربة حكيمة وحصيفة بوجهٍ عام، مثلما هي حكيمة وحصيفة حتماً بالنسبة للشرق الأوسط. كما أنّها مقاربة أساسية للسياسة الخارجية الناجحة بقدر ممارسة القوة المدروسة والموزونة. غير أنَّ التعاطفَ غايةٌ بحدّ ذاته، خاصة بالنسبة لأولئك الأقوياء بما يكفي لإبداء هذا التعاطف. ولقد بدأتُ هذا الكتاب بالتعبير عن مخاوفي إزاء الرعب الذي أُنزل بأمتنا: الخوف من التهديد الفعلي الذي طرحه الإرهاب في عالمنا اليوم، والقلق من أن يقوّض ردّنا على ذلك الخوف تلك القيم ذاتها التي تقوم عليها عظمة أمتنا.

لا شكّ أنَّ قوة أميركا العسكرية المتفوقة قد عزّزت نجاحها في السياسة المعاصرة. لكن تلك القوة العسكرية هي ذاتها نتاج نظام اقتصادي وسياسي ناجح يعكس ما تمثّله أميركا وما ترمز

إليه. وأولئك الذين سعوا، في أرجاء العالم، إلى تغيير أنظمتهم السياسية والاقتصادية فعلوا ذلك من أنفسهم وليس لأنَّ أميركا فرضت أفكارها عليهم. فالنجاح هو نموذج يُحتذى. وأولئك الذين يودّون بلوغ النجاح سوف يكون عليهم أن يسيروا على غرار النموذج، ومن لا يفعلون ذلك سوف يخفقون على الأرجح. وأولئك الذين يتنافسون في السوق العالمي إنما يقبلون الأفكار القوية أو يرفضونها بقصد وعن عَمد؛ فالأفكار تنتصر بالإلهام، لا بالتهديد. والديمقراطية هي جزء من قصة نجاح أميركا. وحتى أولئك الذين ينفرون من اعتناقها، مثل القادة الصينيين، يدركون الحاجة إلى تقليد أشياء كثيرة في المقاربة الاقتصادية الأميركية لئلاّ يتخلّفوا بعيداً في الوراء. وباعتناق هذه الأمم مقاربةً اقتصاديةً جديدةً، فإنها تطلق عملية سياسية لن تكون لديها قدرة السيطرة عليها سيطرة تامة ومطلقة.

ويعتقد البعض أنَّ بمقدورنا أن ننشر الديمقراطية من خلال الحرب، غير أنه ينبغي أن يكون واضحاً أنّ الديمقراطية تعني إرادة الشعب، وحقّه في الاختيار. ويتمثّل دورنا الجوهري في هذه القضية بالتعاون، والمساعدة، والإلهام قبل كل شيء. فالديمقراطية، بالتعريف، لا يمكن أن تُفْرَضَ فَرْضاً. أما التفكير بأنَّ امتلاكنا القوة يفرض علينا أنْ نستخفّ بأماني شعوب العالم المتعلّقة بقضايا غالباً ما تكون حيوية بالنسبة لهم أكثر من حيويتها بالنسبة لنا، وأنْ نعتقد بأننا نعلم ما هو

الأفضل للآخرين أكثر مما يعلّم هؤلاء الآخرين أنفسهم، فلن يكون بالتفكير المريح لمعظم الأميركيين.

ما من مجتمع آخر أبدى ما أبدته أميركا تجاه المهاجرين من انفتاح، ومساواة، وتنوّع، وحسن ضيافة. وهذا الانفتاح هو جزء من عظمة أميركا ونجاحها السياسي والاقتصادي. أمّا تلك السياسة تجاه العالمين العربي والإسلامي التي يترتّب عليها تحويل أميركا إلى حصن أو قلعة، والتي تقيم الحواجز بين الولايات المتحدة وأمم تعدّ أكثر من مليار نسمة، وتترك للخوف أن يطاول الحريات المدنية حتى في أرضنا ذاتها فلا علاقة لها بالعظمة. ولعلنا نربح تكتيكياً على المدى القصير لكن ذلك لن يكون إلاّ مقابل خسارتنا لأنفسنا، وما نمثّله. فنحن، في النهاية، ما نفعله.